مفهوم الغيرية عند هوسرل

الباحث: مجاهد عبد الناصر(*)

إشراف: أ.د.سواريت بن عمر

الملخص:

حاول **هوسرل** من خلال مؤلفاته "تأملات ديكارتية" و"المنطق الصوري والمنطق الترنسندنتالي" الولوج إلى عالم "**الآخر**" عبر مفهوم الغيرية، هذا المفهوم الذي عبر عنه بمصطلح "التذاوت"، كذلك ضحد مركزية الذات والتأسيس لفلسفة الاختلاف، أخيرا العودة إلى الجسد الذي طالما عملت الفلسفات التقليدية والنزعات الدينية المتطرفة والحرب على إقصائه من دائرة التفكير الصوري، ومن عالم (العيش).

الكلمات المفتاحية: هوسرل، الآخر، الغيرية، الإختلاف، الجسد.

Résumé :

Husserl a essayé a travers ses ouvrages "méditations cartésiennes" et " logique formelle et logique transcendantale", d'explorer et d'aborder le monde de l'autrui, en expérimentant le concept de l'altruisme, ce dernier il l'a exprimé en intersubjectivité, ainsi il a anéanti le concept de l'égocentrisme et il a établi les fondements de la philosophie de la différence, Enfin il a focalisé sur le corps qui a été négligé par les philosophies classiques et les tendances religieuse extrémistes ainsi que la guère, et délaissé du cercle de pensée formelle et le monde réel.

Les mots clés :Husserl, l'Autrui , l'Altruisme, La Différence, Le corps.

ونحن نحاول الولوج إلى عالم الغيرية بصفته مفهوما يتعارض مع فلسفات الصراع والتناحر ورفض الآخر، وإن كنا نشك في ذلك، نطرح جملة من الإشكاليات التي تحمل في طياتها مباحث متداخلة ومتشابكة منها اللغوي والأنطولوجي والمعرفي والسياسي: **ما الغيرية؟ وما هي طبيعة العلاقة بينها وبين مفاهيم أخرى تؤسس للحضارة الغربية المعاصرة كمفهوم التواصل، التسامح، الحوار، التعايش، التذاوت...الخ؟**

* - مخبر الفلسفة وتاريخها- جامعة وهران2.

إذا كانت الغيرية مشتقة من الكلمة اللاتينية (*Alter*) التي تحيلنا بدورها إلى الآخر، أو الغير، وما تحمله هذه المفاهيم من معاني الاختلاف، التغاير والصراع، فماذا حدث؟ لماذا هذا التحول في طريقة التفكير الغربي من التناحر والصراع من أجل الاعتراف إلى الغيرية وقبول الآخر؟ هل الغرب من خلال هذا التحول يريد إقامة تصالح مع الآخر؟ أم أن الآخر [الشرقي] الذي طالما تجسد في البنية الذهنية ومخيال الإنسان الغربي كطرف في معادلة الصراع من أجل الاعتراف أقول – تجسد كعبد يخضع لإرادة السيد – استطاع أن يمتلك اليوم المفاهيم المؤسسة للحضارة وأن يجسد مقولة العبد والسيد، حيث يتحول العبيد في نهاية المطاف إلى سادة، أو على الأقل يشكلون خطرا يهدد وجود الغرب السيد في التاريخ؟

كيف تصور **هوسرل** العلاقة بين الذوات في مشروع الفينومينولوجيا وبالتحديد في مرحلتها الثالثة (التكوينية)؟ وإذا كان صاحب الفينومينولوجيا يتخذ من مفهوم البينذاتية مدخلا لدراسة فينومينولوجيا الغيرية ألا يعد ذلك تهديدا للفلسفة الترنسندنتالية التي تجعل أساس عملها يرتكز على الأنا المتعالي؟ هل الحديث عن الغيرية والتواصل في فينومينولوجيا الغيرية كانت تحركه قصدية نحو التفكير في الإنسانية كلها، أم هو حديث عن غيرية المختلف في أوروبا وحدها؟ وهذا ما يفتح أمامنا المجال لطرح سؤال جديد: هل حينما كتب **هوسرل** عن الغيرية وفينومينولوجيا التذاوت قد كتب من منطلق كونه فيلسوف الإنسانية (فيلسوف يفكر في الإنسان بغض النظر عن انتماءاته العرقية والفكرية والعقائدية والجغرافية)؟

لماذا العودة أخيرا إلى الجسد وإلى عالم العيش في فينومينولوجيا الغيرية عند **هوسرل**؟ هل هي الحرب التي عاشتها أوروبا وكشفت عما سمّاه **فرويد** بوهم الحضارة، وبالتالي القضاء على طموح فلسفة الأنوار؟ هل الحرب التي طالما همشت الجسد وقضت على العقل والروح والإنسان كانت وراء قيام الإصلاح الجذري للفلسفة في الفينومينولوجيا المتأخرة؟

الغيرية–قراءة في المفهوم:

ثمة خطأ إبستيمي يقع فيه الكثير من الباحثين عند دراستهم لمفهوم الغيرية لدى فيلسوف ما، والخطأ هذا يتمثل في الخلط بين مفهوم "**الغيرية**" عنده مع مفاهيم أخرى تشترك معه في الأصل الإيثيمولوجي، وأقصد بذلك مفاهيم الغير، الآخر، المغايرة، التغاير...الخ.

صادفنا الكثير من المقالات التي تتناول بالدراسة مفهوم الغيرية عند بعض الفلاسفة، فوجدنا بأن مضمون تلك المقالات يختلف تماما عن العنوان الذي خصص لها [الغيرية]، حيث يتم تقديم قراءة لمفهوم الآخر/الغير بدلا من القراءة في الغيرية معتمدا أصحابها في ذلك على كم هائل من النصوص الأصلية للفيلسوف والدراسات التي خصصها الباحثون لذلك المفهوم، وفات على هؤلاء بأنه ثمة اختلافات جوهرية بين مفاهيم الغيرية، الآخر والغير سنعمل على الإشارة إليها بغية تصحيح الفهم و تعديل مسار البحث الفلسفي.

إن الاشتغال على المفاهيم يشكل أحد الأعمال الكبرى في دائرة التفكير العقلاني الممنهج، من منطلق أن ماهية الفلسفة قد تحددت اليوم بكونها محبة المفهوم، وعليه تكون عملية العودة إلى المفاهيم بغية دراستها دراسة أكاديمية، أو القدرة على نحت مفاهيم جديدة في حقل التجربة الفكرية أو في درجة أقل تبيئتها في ثقافة وعقلية شعب ما تتطلب من الباحث الوقوف على تلك المفاهيم وقفة نقدية لا تخضع لمنطق الانفعال أو التقديس للأفكار وللأشخاص وللمفاهيم، لأن ذلك كله لا يخدم العقل والتفكير بقدر ما يهدمهما.

إن الفلسفة في تصوري هي إرادة الصراع من أجل التعقل، وبالتالي فإن عملية الصراع هذه تحمل في طياتها آليات النقد، والتفكير المنهجي والتخلص من سلطة الانفعال ، وتقديس أية فكرة، أو أي عمل في التاريخ.

يقول **بول فولكيي** بأن الآخر(*L'Autre*) مشتق من الجذر اللاتيني (*Alter*)، ومنه تنحدر *Altérité* ، والغيرية (*Altruisme*)، وهو أحد المفاهيم الأساسية يمكن أن يحمل معاني مختلفة منها: المختلف (*Le Différent*) ،

المتميز(*Le Distinct*) المتنوع (*Le Divers*)، المنفصل (*Le Séparé*) [1]. أما الغيرية (*Altruisme*) فهي كلمة مشتقة من *Alter* اللاتينية أي الآخر، وهي مصطلح وضعه أوغست كونت في مقابل الأنانية(*Egoïsme*).[2].

إننا نرجح جعل مصطلح الغيرية في "العربية" كترجمة لـــ(*Altruisme*) بدلا من *Altérité* التي تعني(لا هوية/مغايرة) أو سمة ما هو آخر، غير، أو تقابل الهوية وهو مفهوم يتعارض مع المفهوم الأول *Altruisme*، ولقد أشار رينوفييه إلى مفهوم *Altérité* بقوله: "هي سمة ما هو آخر سواي" ليتقارب هذا المعنى مع ما أشار إليه لويس برات: "حول العلاقة كمقولة الفاعل: فكرتي الخاصة،...القابل(الموضوع) هو الآخر: إحساس، ضربة، دفعة، صدمة، وجع،...لا يوجد سوى تعاكس بين الأنا وغير الأنا، إنيّة غيرية، وتوليف، إدراك. هذا ما يتطابق من زاوية الأنا الخاص مع حدود العلاقة عموما، تمايز، هوية، تعيين[3].

ثمة مفاهيم أخرى تتحرك في مجال الـــ*Altérité*، كمفهوم التبدل(التغير)*Altération*، ومفهوم الـــ*Alternative* تعاند(تمانع)، ولقد شد انتباهي الدلالة التي يحملها هذا المفهوم في علم المنطق والرياضيات« نسق من قضيتين أو عدة قضايا تكون واحدة منهما على الأقل صحيحة. إنه إذن الجمع المنطقي لقضيتين أو لعدّة قضايا...ليست بالضرورة طردية تطرد إحداهما الأخرى » كما أنها قد تعني« سرد قضايا لا تكون سوى واحدة منها صحيحة(تمانع طردي، تعاند) » [4].

أما الغيرية *Altruisme* فهو كما أشرنا سابقا مصطلح ابتكره كونت ويحمل دلالات جديدة لما كان سائدا في الفلسفات القديمة، يشير إلى

---

1 :Paul Foulquié- Raymond Saint– Jean, dictionnaire de la langue philosophique, p.u.f, paris ,1962, p. p :62-63.

2 :Ibid., p :20.

3:أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية،مج1، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات،بيروت–باريس،ط2، 2001،ص:46 أنظر الهامش.

4:المرجع نفسه، ص:47.

الإيثارية، عكس الأنانية، وفي علم النفس تعني الغيرية الشعور بالحب اتجاه الآخر، وتنطوي تحتها مفاهيم الإيثار، إنكار الذات، تبجيل الآخر، الطيبة[1].

أما في الأخلاق فيعتبر مفهوم الغيرية مفهوما وظيفيا لمقابلة بعض التوجهات الفكرية والنزعات القائمة على أساس النفعية والبراغما والذاتية. إنها عقيدة أخلاقية تعاكس مفهوم **الإمتاعية** *hédonisme*، و**النفعية** *utilitarisme*. وفي الأخلاق دائما تشير الغيرية إلى نظرية في الخير تضع في مقدمة مبادئها مصلحة الآخر كهدف للمسلك الأخلاقي، وهذا ما نجده متجسدا في صيغ أوغست كونت الشهيرة [العيش لأجل الآخر، الحب هو المبدأ، النظام هو الأساس، التقدم هو الهدف][2].

حاول **كونت** نقل مفهوم الغيرية من مجال علم النفس والأخلاق ليشمل كل المجالات الإنسانية الأخرى خصوصا النظام الاجتماعي والأخلاقي، حيث يعتقد أن الشرط الوحيد لتطوير الجنس البشري وتحقيق قيم السلم والاستقرار لن يكون إلا بعد القضاء على الأنانية والنفعية والفردية التي طغت على العلاقات بين البشر ليحل محلها مفاهيم الغيرية ونكران الذات. إن حركة الفكر البشري من المرحلة اللاهوتية إلى المرحلة الوضعية تقتضي من الإنسان الاعتماد على العقل والعلم والنظام لقيادة البشرية إلى مصاف العبادة الدينية للوجود الإنساني الأعظم.

لا بد إذن الاحتراز من الوقوع في الخلط بين اللاهوية والمغايرة كترجمة لكلمة *Altérité* الفرنسية وبين الغيرية *Altruisme*، ولقد وجدنا بعض الدراسات العربية لا تفرق بين المفهومين على الرغم من وجود مفارقة بينهما، فلو عدنا إلى المعجم الفلسفي للسيد جميل صليبا لوجدنا النصوص التالية: "الغيرية (*Altérité*) مشتقة من الغير (*Autre*) كون كل من الشيئين خلاف الآخر ويقابلها الهوية...والعينية...الخ" ثم

1:المرجع السابق، (ص، ص): 47-48.

2:المرجع نفسه، ص:48.

يقول:"والغيرية (*Altruisme*) عند المحدثين هي الإيثار وهي مقابلة للأنانية(*Egoïsme*)[1].

قد يعترض أحدهم بالقول أن ترجمتنا لمفهومي *Altérité* و*Altruisme* بالغيرية له ما يبرره، فالمفهوم الأول يعني الغيرية في شقها السلبي أي ما تحمله من معاني الصراع اللاهوية المغايرة إقصاء الآخر، وهو مفهوم كان سائدا في الفلسفات الكلاسيكية من أفلاطون إلى هيغل، أما المفهوم الثاني*Altruisme* فهو الشق الإيجابي منها وما يحمله من مفاهيم كالحوار والتواصل والتذاوت وقبول الآخر.

أقول هذا تفسير مقبول نسبيا، لكن السيد **صليبا** لا يشير إلى هذه التفرقة صراحة في معجمه الفلسفي، بل إننا نجده في النص الثاني المخصص للحديث عن الغيرية بمعناها الحديث الذي وضعه **أوغست كونت** يقول "والغيرية (*Altruisme*) عند المحدثين هي الإيثار وهي مقابلة للأنانية" ليعود بعدها مباشرة إلى المعنى الأول الذي قال به القدامى أي الغيرية كمرادف لمفهوم التغاير والذي يعني كون الشيء مختلفا عن غيره والغيرية والتغاير، ويستشهد بنصين **لابن سينا**، الأول منهما مقتبس من كتاب الشفاء الذي جاء فيه: "فإن الأشياء المختلفة الأنفس تصير بها مختلفة الأنواع، ويكون تغايرها بالنوع لا بالشخص" والثاني في كتاب النجاة يقول: "إن المغايرة بين أشياء مشتركة في حد واحد إما لاختلاف المواد وإما لاختلاف ما بين الكلي والجزئي"[2]. لكننا نعود فنؤكد على التباين الواضح بين مفهومي المغايرة والغيرية في اللغة العربية وما يقابلهما من كلمتي *Altérité* و *Altruisme* في اللغة الفرنسية.

البينذاتية كأساس لفينومينولوجيا الغيرية عند هوسرل:

كان اهتمام **هوسرل** في مؤلف (تأملات ديكارتية) *Méditation Cartésiennes* ومؤلف (المنطق الصوري والمنطق الترنسندنتالي)

---

[1]:جميل صليبا، المعجم الفلسفي،ج2، دار الكتاب اللبناني،بيروت-لبنان،ط1982، (ص،ص) 130،131.

[2]:المرجع السابق والمكان نفسه.

Logique formelle et logique transcendantale موجها لدحض التوحّدية والتأسيس لفلسفة الغيرية عبر مفهوم التذاوت[1] وعبر تحليلاته المرتكزة في الأساس على مونادولوجيا **ليبنتز** المعدلة.

بعد إنجاز المشروع في مؤلف (الأزمة) اعتقد **هوسرل** بأنه استطاع حل مشكلة التوحدية حين جعل الاستعانة بالآخر كمدخل جديد للولوج إلى "**عالم الحياة**" بعدما كانت التحليلات الفينومينولوجية السابقة مرتكزة فقط على الأنا الترنسندنتالي.

إننا لا ندرك العالم كما هو بل كل ما ندركه هو في الحقيقة مجرد ظواهر للوجود. إن العالم كما يتجلى لنا هو عبارة عن مركب لعلاقات داخلية بين المونادات أو الجواهر الفردية، وبما أن الآخر موجود في العالم فإن حضوره لن يكون حضورا في العالم كظاهرة عينية تجريبية فحسب بل كشرط ضروري وحاسم لوحدة هذا العالم الذي يتجلى لوعي و لغناه[2].

في المبحث الذي خصصه **سارتر** في "الوجود والعدم" لدراسة مشكلة الآخر عند **هوسرل**، يشرح صاحب الوجودية العلاقة المونادولوجية بين الأنا والآخر بالقول أن تفحص شيء موجود أمامنا في عالم العيش بطريقة ذاتية، أو مع صحبة الآخرين، سنجد من خلاله الآخر يكون حاضرا دائما هناك في الموضوعات التي أتفحصها" كطبقة من الدلالات المكونة" لذلك الموضوع. فأنا في عملية إدراكي لموضوع معين إني أدرك في الوقت نفسه الآخر من منطلق أن ذلك الموضوع سيكون دائما موضع إدراك من قبل الآخر[3].

---

1 :Edmund Husserl, Méditations Cartésiennes, trad. : Gabrielle Peiffer et Emanuel Levinas, nouvel édition ,Librairie philosophique, J. Vrin, Paris,(cinquième Méditation :Détermination du Domaine transcendantal comme<<intersubjectivité Monadologique>>)

Aussi :Logique formelle et logique transcendantale, trad. :Suzanne Bachlard,(P.U.F),Paris VI,2em ed,1965,(chapitres :V,VI,VII)

2 :Edmund Husserl, Méditations Cartésiennes ,op-cit, p :176.

3:جان بول سارتر، الكينونة والعدم-بحث في الأنطولوجيا الفنومينولوجية، تر:نقولا متيني، مركز دراسات الوحدة العربية،ط1، بيروت ، 2009، ص:325.

إن الآخر هو الضامن الحقيقي لموضوعية الأشياء التي تدركها الذات فالأنا النفسي الجسدي للذات وللآخر يوضعان بصورة مستمرة في العالم كموجودات في العالم[1].

يمكننا تأويل مفهوم الغيرية عند **هوسرل** أوتعويضه بمصطلح البينذاتية (*intersubjectivité*) لما يحمله هذا المصطلح من مفاهيم الالتقاء، الإدراك الموضعن، التشارك، الامتلاك التذاوتي، المونادية...الخ و «يتحدد المعنى العام للفظ التذاوت بوحدة ممكنة لذوات يصل بينها انشغال واحد هو التفلسف. فاللفظ يعني بدء حقلا نظريا يجمع ذوات متفلسفة، ذوات تتعدد أمبيريا لكنها تتضايف أو على الأقل تلتقي ترنسندنتاليا. ولذلك يحد هوسرل التذاوت بتقابله مع الوجود الفردي للانا، فهو يدل عنده على خاصية للنحن الترنسندنتالي»[2].

يسلك **هوسرل** انطلاقا من التأمل الخامس من التأملات الديكارتية منهجية جديدة لتحقيق المطلب الفينومينولوجي [التأسيس لفلسفة ترنسندنتالية وفلسفة أولى]، ذلك المطلب كان مدفوعا بسؤال البحث عن ماهية الآخر بصفته كيانا مغايرا لي، فإذا كان الآخر وفقا للمسعى الفينومينولوجي يخضع لعمليات التعليق والرد والتقوم كان من الضروري البحث أولا عن الكيفية التي يتقوم بها معنى الآخر في الذات، يقول **هوسرل:** «ففي أي قصديات وأي تأليفات وأي داع وكيف يثبت ذاته ويبررها بصفته تواجدا، بل كيف له أن يثبت ذلك ويبرره بأسلوبه الخاص كما لو أنه حاضر لي بذاته »[3].

يشكل مفهوم القصدية النقطة البؤرية في أعمال **هوسرل**، ولقد تم ربط ذلك المفهوم بفينومينولوجيا الغيرية: إن الشعور هو شعور بشيء ما، والذات في إدراكها لشيء إنما تدرك شيئا ما، قصدية أفعال الذات تجاه موضوع معطى بالمباشرة وبما أن الآخر يجسد مقولة المعطى الظواهري

1:المرجع والمكان نفسه.

2:محمد محسن الزارعي، إدموند هسرل - الفنومينولوجيا والمسألة المثالية، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت-لبنان،2010، ص:245.

3:المرجع نفسه، ص:263.

في الأبحاث الفينومينولوجية وفق نظرية التأسيس، فإن **هوسرل** أكد على ضرورة حضور الآخر في عالم العيش انطلاقا من فكرة القصدية.

إن توظيف مفهوم القصدية ضمن مشروع الغيرية، وقبول الآخر، يكشف عن طموح هوسرل في إصلاح الفلسفة الغربية التي طالما تأسست على نظرية الصراع بين الذوات، والسقوط في شراك التوحدية.

لا يستطيع الإنسان إذن تشكيل معرفة عن ذاته بمعزل عن الغير، كما أنه لا يمكن أنسنة عالم العيش دون القضاء على فكرة الصراع والتناحر من أجل الاعتراف ونبذ الآخر. إن العزلة التي فرضها الفكر الديكارتي على الذات سرعان ما تم تجاوزها بنظرية التذاوت، لكن شرط ضحد التوحدية والتعايش مع الآخرين يقتضي من الفينومينولوجي كخطوة إجرائية معرفة الآخر. لكن كيف يمكن لأنا متفردة بعالمها الخاص أن تقبل أنا غريبة عنها؟ بمعنى آخر وقطعي: هل باستطاعة الأنا معرفة الغير؟

يعتقد **هوسرل** في إمكانية معرفة الغير وإلا فإن عملية التذاوت تصبح متعذرة، فمن غير الإمكان أن تتحدد **المونادات** دون اتصال أنطولوجي ومعرفي بينها. إننا نشكل معرفة عن ذواتنا من خلال الغير كذلك ندرك ذلك الغير ونتعرف عليه من خلال المجال المشترك الذي يسميه الألمان بعالم العيش(*Lebenswelt*).

في الفقرة الثالثة والأربعين من مؤلف "التأملات" نعثر على نص يشرح من خلاله **هوسرل** الكيفية التي يتم من خلالها معرفة الغير حيث يقول:« إنني أدرك الآخرين أدركهم بصفتهم موجودات واقعية داخل سلسلات من التجارب المتغيرة والمتطابقة في اللحظة عينها، وأدركهم كذلك بوصفهم موضوعات في العالم، لا مجرد "أشياء" في الطبيعة وإن كانوا يشكلون جزءا منه. يعطى لنا الآخرون في التجربة بصفتهم المتحكمين بطريقة نفسية في أجسامهم الفيزيولوجية التي يظهرون من خلالها. مرتبطين أيضا بأجسامهم بطريقة فردية (موضوعات بسيكو فيزيائية) فهم موجودون في العالم من جهة أخرى، فأنا أدركهم في الوقت نفسه كذوات لهذا العالم

نفسه الذي أدرك، إنهم يملكون تجربة عن ذاتي مثلما أملك تجربة عن "العالم" ومن خلاله عن الآخرين »[1].

لقد أدرك **هوسرل** الطابع الإنساني لمسألة الآخر وتعاليه الخاص على الأنا، وإذا كانت مسألة التعالي حظيت باهتمام **هوسرل** أثناء الاشتغال على مسألة التقوم أو التأسيس، فإن عملية تعالي الآخر كما يؤكد **هوسرل** لا نستطيع فهمها داخل أبحاث التقوم في الفينومينولوجيا الستاتيكية كما عرضت في مؤلف الأفكار، لأن الآخر لا ينتمي إلى مجال الأنا المحض، أي إلى أفق تجربة الأنا الخاصة، لذلك فإن تحليل تعالي "الآخر" يقتضي منذ هذه اللحظة طريقة بحث جديدة تتطابق مع قصديات أفعال الآخر وأنماط عطائه المغايرة لعطاء الأنا، لكن البحث عن مثل هذه الإجراءات يجعلنا ننحرف عن مقصد الفينومينولوجيا المتمثل في اتخاذ الأنا القطب الموجه لأي تجربة ممكنة، في حين يكون الآخر في هذه المرحلة الجديدة هو القطب الأساسي وليس الأنا.

إن ربط بحث التعالي بمشكلة الآخر دفع **بهوسرل** في كتاب التأملات نهج طريق جديد يختلف عما كان سائدا في الجزء الثاني من مؤلف الأفكار، حيث ستتجه البحوث في التأملات الديكارتية انطلاقا من التأمل الخامس نحو دراسة أشكال التعالي لتحصيل ما يسميه هوسرل موضوعية العالم.

يظهر لنا الآخر كما بين ذلك **هوسرل** في النص الذي نقلناه بوجوه متعددة يمكن حصرها فيما يلي:« إنه وجود واقعي فهو شيء في العالم شأنه في ذلك شأن الموجودات الأخرى كلها، وهو أيضا موضوع نفسي، ولذلك فهو ليس مجرد جسم، فهو جسد أو بدن، إنه مختلف عن الأجسام الفيزيائية بأسلوبه في الوجود أو بنمط وجوده، كما أن للآخر خاصة مميزة هي التفكير، فهو وجود يفكر يحقق بوجوده أفعال تفكير...إن الآخر يجرب العالم

---

1 :Edmund Husserl, Méditations Cartésiennes, op, cit, (p.p)150-151.

وأشياءه ضمن تجربة خاصة مثلما أنني أجرب العالم ضمن تجربتي الخاصة» [1].

عرفت الفينومينولوجيا والتحليلات الإبستيمولوجية عند **هوسرل** في أواخر مسيرتها منعطفا تمثل في الولوج إلى عالم الحياة من خلال مفهوم "التذاوت". يتساءل **هوسرل:** كيف يتوفر لأنا مستقلة تختص بمجموعة من أحداثها المعيشة (الخبرة) أن تتواصل مع أنا غريبة عنها أو تقبل بوجودها في محيطها المعيش؟ للإجابة على هذا التساؤل يقترح إدخال أبحاث جديدة في الفينومينولوجيا تعنى بدراسة الجسد. يتوقف وعي وجود أنا مغايرة وقبولها الولوج إلى تجربتي الخاصة بالجسد.

إن الآخر كأنا يغايرني يسكن بدنه التابع لنظامه السيكوفيزيائي، إنه يمتنع على الأنا تحصيله وفقا لأحكام الوعي عنده بسبب كونه يشكل وجودا أصليا. إنني أدرك الآخر ببدني فهو يختلف عن وجود الأشياء الأخرى، بل سيشكل المرجع الأساسي لكل الأبدان التي تتحرك في محيط تواجده، وعلى هذا الأساس سيحاول هوسرل تجاوز نظرية التماهي كما طرحت في الفينومينولوجيا الستاتيكية ليستبدلها بنظرية "الإدراك بالمماثلة" [2].

إن الآخر يماثل الأنا ولا يطابقها، فهو يتقوم داخل الأنا وفق مبدأ التماثل وليس وفق مبدأ التماهي ويكون التماثل بين الأبدان. لقد حاول **هوسرل** من خلال نظرية الإدراك بالمماثلة حل مشكلة الآخر إنها نظرية« يتحدد رهانها بتحقيق مطلبين: احترام غيرية الآخر بفهمها خارج دائرة الأنانة، والحفاظ على المطلب المثالي بتجذير تجربة تعالي الآخر ضمن التجربة الأولية وبفضلها أمكن لهوسرل أن يتخطى الأنانة من دون أن يفرط في مذهب الإيغولوجيا » [3] .

1:محمد محسن الزارعي، إدموند هسرل الفنومينولوجيا والمسألة المثالية، مرجع سابق، (ص.ص)265-266.

2 :Edmund Husserl, Méditations Cartésiennes , op- cit,,p :177

3:محمد محسن الزارعي، إدموند هسرل الفنومينولوجيا والمسألة المثالية، مرجع سابق،ص:271

لتعميق الفهم حول مسألة "التذاوت" يقترح **هوسرل** استراتيجية جديدة يمكن الولوج من خلالها إلى عالم"الآخر"، متمثلة في نظرية "العالم الموضوعي" التي تسمح لنا بالانتقال من أنطولوجيا الذات إلى أنطولوجيا الآخر. إن العالم الموضوعي يمثل الدائرة العليا التي تتشارك من خلالها الذوات بعضها مع بعض.

يختلف العالم الموضوعي عن العالم الذاتي في عدة مواقع: فالعالم الموضوعي هو عالم يتميز بالوحدة والهوية مع ذاته، إنه عالم واحد وثابت وموضوعي بالنسبة لكل الذوات التي تتحرك في مجاله عكس عالمي الخاص عالم "**الإنيّة**" الذي لا يعدو كونه ظاهره من ظواهر العالم الموضوعي الذي يعتبر عالم تذاوتي يتقوم ضمن أنوات تكاد تكون ذات طبيعة كلية محضة تقويما يسمح لي أن أفقد عزلتي عن الآخرين[1] وبالمثل يسمح للآخرين بفقدان عزلتهم عني.

أدى اهتمام **هوسرل** بمسألة التذاوت ومشكلة تجربة الآخر في المراحل المتأخرة إلى العودة إلى ميدان التجربة الخالصة للعوالم الروحية والاجتماعية والتاريخية بعدما كانت مغيبة في التحليلات الفينومينولوجية الأولى، وإضافة إلى تأثير مونادولوجيا **ليبنتز**، نجد تأثيرات **دلتاي** بارزة على تفكير **هوسرل** في هذه المرحلة، فلو عدنا إلى الرسالة التي كتبها **هوسرل لجورج ميش** سنة 1929 لوجدناه يصرح بهذه الحقيقة :"ألا تعرفون أن بعض المناقشات مع دالتي في 1905 في برلين(وليست هذه الكتابات)أعطت الدفعة الجريئة التي قادت **هوسرل** صاحب أبحاث منطقية إلى صاحب أفكار موجة، وأن فينومينولوجيا الأفكار غير الكاملة والمطروحة اكتملت بدقة من 1913إلى 1925 وقادت بمنهجية شكلية مختلفة لحميمية أكثر مع **دالتي**"[2].

1:المرجع السابق، ص:278.

2: بن مزيان بن شرقي وآخرون، سؤال الأصل-مقاربات في فلسفة التاريخ، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط1،وهران-الجزائر، 2008، ص:26.

على الرغم من عودة **هوسرل** إلى عالم الحياة والدور الكبير الذي يلعبه مفهوم الحياة في فلسفته إلا أن **غادامير** يشك في إمكانية تقدير المطالب التأملية التي يحملها مفهوم الحياة . لقد حاول **هوسرل** أن يستنتج تكوين العالم التاريخي من (الحياة الواعية) وهنا يتساءل **غادامير** عمّا إذا كان مفهوم الحياة هنا قد حرف عن حقيقته حينما يعبر عنه **هوسرل** بمصطلحات إبستيمولوجية أي«عندما يستمد من معطى الوعي الأساسي» [1].

أما مفهوم التذاوت عند **هوسرل** فهو بدوره كان محل نقد من قبل **غادامير** الذي يقول بأن البينذاتية ومشكلة الآخر بما هو"أنا" يثيران جملة من التساؤلات: فإذا كان معطى الوعي المحايث والمعيش والمختبر عبر التأمل لا يتضمن الأنت "الآخر"(بطريقة مباشرة وأساسية) وهذا ما أدركه هوسرل حينما أكد على أن "الأنت" لا يتمتع بالتعالي المحايث الذي يخص موضوعات التجربة *Erfahrung* في العالم الخارجي" عند اعتبار الأنت هو أنا آخر حيث يفهم بمنطلق الازدواجية الفكرية المعرفية، الأنت كأنا آخر(أي يفهم بموجب الأنا)، إذا كان كذلك فكيف يفهم ذلك كله وفي (الوقت نفسه هو منفصل عنه وهو مستقل مثل الأنا نفسه)؟[2]

وقف **هوسرل** عند مسألة التناظر القائم بين (الأنا) و(الأنت) من خلال مفهوم البينذاتية لكنه عجز عن تحديد« الأولوية المعرفية التي تضطلع بها الذاتية المتعالية » [3]، ويستنتج **غادامير** بعد هذه التحليلات أن الأحكام التي توصل إليها **هوسرل** في مسألة التذاوت هي نفس الأحكام التي توصل إليها **ديلتاي**، فالآخر حينما يفهم كموضوع للإدراك الحسي يتحول إلى أنت من خلال المشاركة العاطفية، ولقد كان لمفهوم المشاركة العاطفية معنى متعالي خالص لدى **هوسرل** لكنه ظل محصورا في دائرة الوعي الذاتي، وبالتالي لا يستطيع الولوج إلى دائرة الحياة الوظيفية(التي تمضي إلى ما

1:هانز جورج غادامير، الحقيقة والمنهج-الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، تر: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، ط1، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية، طرابلس، 2007، ص:349.
2:المرجع السابق ، ص:349.
3:المرجع السابق والمكان نفسه.

وراء الوعي) ولهذا السبب يعتقد **غادامير** أن مفهوم المضمون التأملي عند كل من **ديلتاي** و**هوسرل** ظل غير مطور في الواقع « **فدلتاي** يحاول ببساطة أن يضع وجهة نظر الحياة على نحو سجالي بمقابل التفكير الميتافيزيقي، و**هوسيرل** لم تكن لديه فكرة إطلاقا عن الترابط بين هذا المفهوم والتراث الميتافيزيقي بعامة، والمثالية التأملية بخاصة » [1].

أما **سارتر** فبدوره وجه جملة من الانتقادات لفينومينولوجيا الغيرية عند **هوسرل**. إن أية محاولة إجرائية لمعرفة كينونة الغير عند **هوسرل** تبوء بالفشل، لقد"جرّد **هوسرل** نفسه من أي إمكانية لفهم ما يمكن أن تعنيه كينونة الآخر خارج العالم، لأنّه يعرّف الكينونة بأنها مجرد مؤثر على سلسلة لا متناهية من عمليات يجب القيام بها، وهذه أفضل طريقة لقياس الكينونة بالمعرفة"[2].

حينما يشدد **هوسرل** على القول بأن قياس الكينونة يجب رده إلى المعرفة، فهذا يضعنا أمام الإشكالية التالية: إن معرفة كينونة الآخر إنما تقاس بمعرفته بذاته وليس بمعرفتي أنا به، غير أنني أريد الوصول إلى معرفة كينونة الآخر من حيث معرفته بذاته وهذا على حد تعبير **سارتر** أمر مستحيل: « لأن ذلك يفترض في الواقع، أن أتماهى بالآخر في داخلانيتي، فنجد هنا من جديد ذلك التميز المبدئي بين الآخر وبيني » [3]. إن الأنا الإمبريقي عند **هوسرل** ليس مؤكدا في الواقع أكثر من الأنا الإمبريقي لدى الآخر.

يؤكد **هوسرل** على أن الأنا الترنسندنتالي مختلف اختلافا جذريا عن الأنا الإمبريقي، لكن ما يحاول سارتر الكشف عنه ليس التوازي بين الذات الترنسندنتالية لدى الفرد والجماعة التي تتشكل بدورها من مجموعة من ذوات أخرى(الذات الترنسندنتالية لدى الآخرين) لأن الآخر الذي أبحث عنه ليس الشخصية الإمبريقية التي أصادفها باستمرار في تجربتي الخاصة، بل

1:المرجع السابق ، ص:350.
2:جان بول سارتر، الكينونة والعدم- مرجع سابق، ص:326
3:المرجع السابق والمكان نفسه.

هي الذات الترنسندنتالية التي تدل عليها تلك الشخصية عينها، وهنا تظهر عقبة جديدة أمام التحليلات الفينومينولوجية عند **هوسرل**، أعني مشكلة الارتباط في الحقل الترنسندنتالي، الارتباط بعيدا عن التجربة بين الذات الترنسندنتالية للانا والذات الترنسندنتالية لدى الآخر.

إن الحل الذي يقترحه **هوسرل** لهذه المشكلة يكمن في مفهوم القصدية كما أشرنا إلى ذلك في موضع سابق "الذات الترنسندنتالية تحيل منذ البداية إلى ذوات أخرى لأجل تشكيل مجموعة المواضيع القصدية للوعي"[1] لكن الذات الترنسندنتالية الفردية عندما ترتبط بالذوات الأخرى من حيث هي دلالات يتحول الآخر في النتيجة إلى مجرد مقولة إضافية تتيح تشكيل عالم معين وليس ككائن واقعي ومتعالي فينفس الوقت عن العالم.[2]

يمكن تلخيص فينومينولوجيا الغيرية لدى **هوسرل** في نقاط أساسية أهمها: ضحد التوحدية والمركزية الغربية التي فرضها علينا الفكر الديكارتي، ثم العودة إلى الجسد الذي طالما شوهته الفلسفات التقليدية(**أفلاطون/ديكارت**) والنزعات الدينية المتطرفة، وأخيرا العودة إلى عالم الحياة أو عالم العيش (*Lebenswelt*)الذي تم طرحه في دائرة النسيان من قبل العلوم الوضعية، أو تدميره من قبل الحرب.

ربط **هوسرل** فينومينولوجيا الغيرية بمسألة التذاوت "وحدة ممكنة لذوات يصل بينها انشغال واحد هو التفلسف"، أي بَلَغتْ بِلُغَةِ **هيغل** المعرفة اليقينية والمطلقة وهي المعرفة الفلسفية، ولو تأملنا في التوجهات الفكرية **لهوسرل** لوجدناه إلى جانب كل من **هيغل** و**هيدغر** يؤكدون على القول بأن الفلسفة هي صناعة أوروبية بامتياز، والوعي الوحيد الذي يبلغ المعرفة الفلسفية والعلم اليقيني والصارم هو الوعي الأوروبي، إذن فالتذاوت بما هو وحدة عينية وممكنة لذوات متفلسفة لا يحصل سوى بين الذوات الأوروبية.

هذا ما يحيلنا بالضرورة إلى القراءة التفكيكية لعنوان محاضرات **هوسرل** المتأخرة "أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجية الترنسندنتالية"

1:المرجع السابق والمكان نفسه.

2:المرجع السابق والمكان نفسه

الذي يعني بأن العلم هو علم أوروبي بامتياز، لأنه حتى ولو فرضنا جدلا القول بأن قصد **هوسرل** في ذلك تمثل في الإشارة إلى أن علوم أوروبا هي وحدها دخلت في أزمة وما خلاها من علوم الأمم الأخرى لم تمسه تلك الأزمة، **فهوسرل** يؤكد كما أشرت آنفا بأن العلم هو علم أوروبي وأن الأزمة مسته هو ذاته، وبالتالي فخلاص البشرية وعلومها راجع إلى خلاص العلوم الأوروبية وفلسفاتها التي فرضت نفسها بالقوة كفلسفات وعلوم عالمية، وأن ما غير الأوروبيين لم يستطيعوا إنتاج علوم ولا فلسفات ليس لها أية علاقة أو انحدار من الفلسفة الأوروبية ذاتها.

تحول مفهوم التذاوت في الأزمنة المعاصرة كما يشير إلى ذلك بعض علماء الاجتماع إلى مفهوم سلبي من الناحية الإجرائية، حيث أصبح يعني تجمع وتكتل لأفراد ينتمون لطبقة اجتماعية أو سياسية أو ثقافية معينة داخل الفضاء العمومي مما أصبح يشكل عائقا أمام عملية التواصل والحوار وفلسفة قبول الآخر، ولقد أدى هذا في الأخير إلى تقلص دائرة الحوار والتسامح و صعوبة التأسيس لمجتمع إنساني كلياني يقوم على أساس مبادئ المواطنة والديمقراطية وتبادل الآراء ونبذ العنصرية والتفريق العرقي، وأدى أيضا إلى اتساع هوة الصراع من أجل التناحر والاعتراف، وأصبحت الدول الغربية اليوم تطرح مشكلات الأقليات والهجرة والعنف والانتحار.

إن الواقع يثبت إذن بأن مفهوم الغيرية والإيثارية والتواصل والتسامح وحوار الثقافات والأديان ليس له ما يبرره من الناحية الواقعية، ليس معناه أننا من دعاة الصراع والتناحر والحرب، ولكن الكثير ممن يقدمون أنفسهم كدعاة للديمقراطية والحرية وقبول الآخر هم من نجدهم اليوم وراء الأزمات التي أصبحت تعصف بأنطولوجيا الإنسان: أزمات الروح، المعنى، المصير، والوجود.

المراجع:

1-جان بول سارتر، **الكينونة والعدم- بحث في الأنطولوجيا الفينومينولوجية،** تر: نقولا متيني، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،ط2009،1

2-هانز جورج غادامير، **الحقيقة والمنهج-الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية،** تر: حسن ناظم و علي حاكم صالح، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية، طرابلس-،ط1، 2007،

3-محمد محسن الزارعي، **إدموند هسرل الفنومينولوجيا والمسألة المثالية،** التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان،ط1، 2010.

4-بن مزيان بن شرقي آخرون، **سؤال الأصل-مقاربات في فلسفة التاريخ،** دار الغرب للنشر و التوزيع، ط1، وهران-الجزائر، 2008.

5-أندريه لالاند، **موسوعة لالاند الفلسفية،** مج1، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ط2.

6-جميل صليبا، **المعجم الفلسفي،** ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت-لبنان، ط1982.

7-Edmund Husserl, **Méditations Cartésiennes**, trad :Gabrielle Peiffer et Emanuel Levinas, nouvel édition, Librairie philosophique,J.Vrin,Paris,1996.

8-Edmund Husserl ,**Logique formelle et logique transcendantale**, trad: Suzanne Bachlard, (P.U.F),Paris VI,2em ed,1965

9-Paul Foulquié- Raymond Saint –Jean, **dictionnaire de la langue philosophique**,p.u.f,paris,1962